صعود الله إلى السّماء، تمجيد للإنسان

هل حاولتَ أن تحدّق في الشّمس؟ انّ النور الباهر لهذا الكوكب المخلوق يسبّب العمى لمن ينظر إليه. فما بالك في النّور السّاطع المنبعث من قيامة المسيح؟ إنّ بهاءها يفوق ولا شكّ طاقتنا الرّوحيّة على رؤية مجدها. ومع ذلك فإنّ كاتب المزامير يقول: "بنورك نعاين النّور." (المزمور 36: 9) ولعلّ خير تشبيه هو الموشور! إن شئت أن تتمتّع ببهاء النّور الطبيعيّ دون أن تؤذي نظرك، فعليك بالموشور: إنّه يكسر النّور ويحوّله إلى الألوان البديعة التي نشاهدها في قوس الغمام. كذلك القول في الكنيسة: إنّها تُرينا بهاء المسيح النّاهض من الموت بواسطة موشور حياتها اللّيتورجيّة.

فلننظر إذًا إلى سرّ القيامة الذي أصبح في متناول التّفكير البشريّ، ونتأمّل في المسيح الظّافر، محرّر آدم وحوّاء، صاعدًا إلى الآب السّماويّ ليرسل إلينا الرّوح القدس. الكنيسة تتابع الأحداث كما رواها لنا الإنجيليّون الأربعة بشأن الأيّام الأخيرة التي أمضاها المعلّم الإلهيّ بيننا وهو بعد في الجسد. لاحظ أنّ القدّيس لوقا يروي لنا حدَث القيامة في الفصل الرّابع والعشرين بأحداث مقتضبة متتابعة:

القبر الخالي، تبشير الملاك بقيامة الربّ، عشاؤه مع تلميذَي عمّاوس، ظهوره للرّسل، وعده بإرسال الرّوح القدس، أخيرًا صعوده إلى السّماء.

إقرأها ثانية : أليس انطباعك أنّ التّلاميذ اختبروها كلّها كما لو كانت حدثًا واحدًا متماسكًا جرى بسرعة خاطفة؟ ولا عجب في ذلك، فالقيامة ليست إلاّ تدخّل الأبديّة لتحطّم الحاجز بينها وبين عالم الزّمَن. ولكنّ القدّيس لوقا ذاته يعود في سِفر أعمال الرّسل فينهج أسلوب المنشور الذي نهجه الإنجيليوّن الثلاثة الآخرون واعتنقته الكنيسة فيما بعد في احتفالها بدورة الأعياد السيّديّة: أولا القيامة، ثمّ الصعود واخيرًا العنصرة.

الرّجوع إلى الله

لـ مناسبة عيد صعود السيّد المسيح إلى السّماء يتساءل القديس يوحنّا الذّهبيّ الفم: "بِمَ نحتفل في هذا اليوم؟" ثمّ يجيب هو نفسه عن السؤال الذي طرحه بقوله: "في مثل هذا اليوم تمّ إرجاع البشريّة كلّها إلى الله." ذلك أنّ الله عندما خلق الإنسان على صورته ومثاله، وضع في قلوبنا ظمأً لا يستطيع أحد غيره أن يرويه." وفي هذا الصّدد يقول القدّيس أوغسطينُس:

" لذاتك خلقتنا يا ربّ، ولن تجد قلوبنا الرّاحة إلاّ فيك."

ومع أنّ السقطة في الخطيئة أبادت توقنا إلى الله، بيد أنّها لم تقضِ عليه قضاء تامًّا. فأخلى ابنُ الله ذاتَه من منزلته الإلهيّة وافتقر لكي تغتني البشريّة بألوهته. فلبس طبيعتنا البشر يّة وضمّها إلى شخصه الإلهيّ. وهكذا سحقَ الموت بقيامته. وبصعوده إلى السّماء عاد إلى أبيه السّماوي حاملا في شخصه طبيعته البشريّة وطبيعتنا أيضًا. استمع إلى الذّهبيّ الفم يقول:

"نحن الذين لا نستحقّ الكرامة الأرضيّة، صعدنا مع المسيح إلى الملكوت الأعلى فدخلنا السّماء واتّخذنا مكاننا على العرش الملوكيّ. وإذا بطبيعتنا البشريّة، التي كان الشّيروبيم يمنعونها من اجتياز باب الفردوس، تجلس اليوم في مرتبة تفوق الشّيروبيم. فصاروا يرفعون أنظارهم ليروا طبيعتنا البشر يّة متربّعة على عرش ملوكيّ، تسطع بهاءً خالدًا ومجدًا أبديًّا.""من التّراب وإلى التّراب" : ذلك كان مصيرنا المحتوم. لكنّنا إذا اتّبعنا المسيح فانّ مسيرتنا على هذه الأرض لا تنتهي في التّراب، بل في السّماء عند الله.

أربعون يومًا للاستعداد

عند ما يكلّمنا الإنجيليّون عن الأربعين يومًا التي تفصل — أو بالحريّ تَصِل — بين القيامة والصّعود، علينا أن نتأمّل في المعنى الصّوفيّ لعدد الأربعين. فكلمّا ورد ذكره في الكتاب المقدّس نلاحظ أنه يُستعمَل للدلالة على مرحلة انتقاليّة: فالشعب العبريّ تاه في البر يّة أربعين سنة قبل أن يدخل أرض الميعاد. والسيّد المسيح أمضى أربعين يومًا في البريّة استعدادًا لرسالته على هذه الأرض. كما أمضى أربعين ساعة في القبر قبل أن يقضي على الموت بقيامته المجيدة. ويرى خبراء التّاريخ أن الأقدمين كانوا يقدّسون هذا العدد لأنه يتألّف من ضرب الجهات الأربع والعناصر الأربعة والفصول الأربعة بعشرة، علمًا أن عدد 10 في نظرهم هو كمال الأعداد كلّها ويشير إلى الأبديّة. وما الأربعون يومًا التي أمضاها السيّد المسيح يتراءى لتلاميذه بعد قيامته، سوى دعوة لنا نحن المؤمنين الذين "اعتمدنا في المسيح" إلى أن "نلبس المسيح" . أمّا الصّعود فيرمز إلى مصير البشريّة، وهو (غلاطية 3: 27) الاتّحاد بالله. وما قالته الحيّة قديمًا لحوّاء عن مكرٍ ودهاء من أنها هي وآدم " سيصيران كآلهة" قد أصبح الآن حقيقة واقعة. فهذا ما يؤكّده القدّيس بطرس في رسالته الثّانية: "

" قد وُهِبَت لنا المواعد الثّمينة العظمى، حتّى تصيروا بها شركاء في الطّبيعة الإلهيّة."
(2 بطرس 1: 4)

هذه النّجاة هي التي نحاول الفوز بها من خلال التوبة و الصّيام أربعين يومًا. أما في الأربعين يومًا التي نحتفل فيها بعيد الفصح فنعتزّ بجِدّة حياتنا في الربّ . "أنا الآن حيّ، لا أنا بل المسيح حيّ فيّ!" (غلاطية 2: 20)

ذلك هو فرح الصّعود. إنّه فرح البشريّة بالمصير الذي حقّقه لها المسيح بحميم محبّته وعظيم رحمته. فاستمعْ إلى تمجيد هذا السرّ في قِطَع خدمة الغروب لعيد الصّعود:

أيّها الربّ، في آدم سقطَت الطّبيعة البشريّة إلى أعماق الأرض. ولكنّها أُعيدَت فيك إلى مكانتها الأولى. فإنّك اليوم رفعتَها إلى ما فوق القوّات والرّئاسات السّماويّة. كما أحببتَها ومنحتها أن تشاركك العرش. وتحنَّنتَ عليها فمنحتها قِسطًا من نصيبك الخاصّ."

الحضور بساحبة من غمام

ليس عيد الصّعود إذَن وداعًا للسيّد المسيح. فكيف يمكننا أن نفرح لو تركَنا يتامى، محرومين من التّواصل معه؟بل عيد الصّعود هو عيد حضور الربّ بيننا. ولَئِن أُخذ الربّ بجسده إلى العلاء، فالغمام لا يحجب حضوره، بل يُشير إليه.

ففي الخروج، قاد الرّوح القدس الشعب المختار في مسيرتهم، بحضوره بينهم في عامود من الغمام نهارًا، وعامود من النّار ليلًا. إنّ غمام الصّعود يرمز إلى ألسنة النّار التي شوهدت يوم الخمسين. فالغمام والنّار كلاهما يرمز، كما في الخروج، إلى حضور روح المسيح.

قبل أن يصعد يسوع إلى الآب، كان يمكن أن يراه النّاس هنا أو هنالك. لكنّه بعد صعوده أصبح دائمًا حاضرًا في كل مكان، أي فيك وفيّ، بروحه، وبواسطة الكنيسة. إنّنا بنوره نعاين النور حقًّا.

نشر ما ورد في مجلّة نير أيست الكاثوليكية الطبعة الثانية
العدد الثاني
(صيف، 1985) أعيد الطبع بعد الموافقة والإذن

صعود الله إلى السّماء، تمجيد للإنسان

مكتب الخدمات التربوية
لأبرشيّة نيوتن الملكيّة
http://mekite.org/

حقوق الطبع والنشر محفوظة لكتابة الأيقونات
لبترو دزيوبا
http://www.iconsofglory.org/